حلم شتوي

قصة د. سيد شعبان

اعتدت النوم مبكرا؛ أستريح من عناء النهار؛ لم تعد شاشة التلفاز تقدم غير الوشايات في زمن الخمول، لاحاجة بي إلى ذلك الغثاء؛ أبسط أغطيتي ومن ثم أندس في داخلها؛ رحم الله أيام الشباب كنت لا أنام؛ أتقافز تيسا بريا؛ بت بلانفع؛ على أية حال زارني لفيف من الراحلين: جدي وأبي وأعمامي؛ استمعت إلى نتف من أحاديثهم؛ كانوا مثلي يلتحفون أغطية الشتاء؛ أي عالم مواز يسكنونه؟

هل تمر عليهم شمس نهار وأقمار ليل؟

ربما يمتلكون وقتا كافيا لتبادل الأحلام المؤجلة؛ يتجاوزن حدود الزمن؛ يقدمون حلولا لمشاكلنا المزمنة؛ لكن أحدهم لايتبرع بالقدوم إلينا؛ يكتفون ببعض الطيف زائرين في الأحلام ليالي الشتاء الباردة؛ لو أنهم يأتون!

بعضهم يتمنى أن يزور صغاره يحمل أكواب الحليب؛ يخايل بها في ومضة البرق؛ يعدون خلفهم لكنهم يذهبون بعيدا وراء الغمام!

لعل هذا يحدث لمن ارتحلوا إلى العالم الآخر؛ أخبرني جاري عم معن المكاوي أن هؤلاء يتقابلون؛ يحتفي بعضهم ببعض؛ حدثني عن عراك الكلاب في ليلة شتوية؛ يجيد ضرب العصا؛ تبعهم فإذا بهم يتطاولون ويكبرون؛ يفتحون أفواها تماثل فوهة الفرن؛ لم يخف؛ عدا خلفهم فإذا هم سراب؛ أوصاني بألا أفعل مثله!

فالجن يسكتون شقوق الأرض!

لو أن هؤلاء لم يشاغبوا علي في الحلم؟!

الموتى جالسون يتسامرون ويتذكرون أيامهم الماضية؛ في مشهد آخر يأتي ذئب ويختال راقصا؛ يفتح فمه وتبرز أنيابه؛ أتذكر العصا التي وراء الباب؛ كثيرا ماكان أبي يوصيني بأن احتفظ بها، أمسكت بها وجريت وراء ذلك الحيوان الذي عوى!

يؤذن الديك لصلاة الفجر فأتململ في فراشي أحاول طرح أغطية الشتاء الثقيلة، لم أحك لكم أن صديقي زين العابدين زارني طيفه تلك الليلة؛ كنا في جوار القرية وقد أمسك بمنجله وأعطاني حزمة برسيم؛ حملتها تعدو خلفي كلاب سوداء فطاردتهم؛ أدخل امتحانا لاعهد لي به؛ أحاول الإجابة على أسئلته؛ أراني متسولا الإجابة؛ أجد زميلا يفتح هاتفه ومن ثم يسطر بقلمه؛ أتلصص عليه؛ يدخل مراقب اللجنة؛ أعطيه ورقتي وقد أجبت!

أخرج في نزهة ملقيا بأعباء الزمن خلف ظهري؛ أحاول الشدو بأبيات من الأطلال فتهرب مني الأشعار؛ ألتمس راحة خلف شجرة عملاقة فإذا بطائر غريب يشبه البومة ويكاد يماثل الغراب يصدر صوتا غريبا؛ يلقي في أذني أبيات شعر؛ أسائل نفسي هل صرت شاعرا؟

يتملكني زهو ويراقصني طرب؛ كأن شيطانا ما يمدني بتلك الأبيات؛ قديما جربت أن أكون شاعرا؛ أتيت بكتب النغم؛ صادقت عنترة العبسي؛ نفرت من المتنبي المغرور؛ حملت المحبرة والريشة وراء شوقي؛ رجوته أن يهبني بعض أشعاره؛ حاولت رشوته؛ كان كريما معي: وهبني نهج البردة؛ طربت لعطائه؛ تدور فوق لساني، أصعد بها مسرح المدرسة يصفق لي زملائي في الصف؛ ينهرني معلمي؛ تلك أبيات لأمير الشعر!

تشجعني زميلتي ذات الوجه القمري؛ أسرع إليها؛ أهبها بعضا من مفرداتي؛ أصاب بدوار البحر؛

تختفي وراء أسداف الزمن المثقل بأعبائه، تضمر الأشياء الحلوة وتختفي!

يعاود الذئب عواءه خارج أسوار البيت الحجري، تبدأ العصافير في زقزقتها؛ تنادي أمي؛ ألملم بقايا الحلم!